ثالثاً قسم : اللغة العربية وآدابها

١ـ قصة فتيان الصدق عند حاتم الطائى دراسة بلاغية .

د/ أحمد إبراهيم محمد.

٢ـ شوائب المعجم العربى الجمود والتهذيب.

د/ إسماعيل أبو اليزيد إسماعيل.

٣ـ من بلاغة الحوار القرآنى فى سورة هود عليه السلام.

د/ محمد محمد الطاهر.

٤ـ العربية الفصحى وعوامل تجددها.

د/ جمال مصطفى شتا.

٥ـ المقياس الصوابى عند ابن هشام اللخمى .

د/ مجدى فتحى محمد قشيوط.

٦ـ الحركات عند ابن جنى فى ضوء علم الأصوات المعاصر.

د/ عبد اللطيف مطيع عبد القادر.

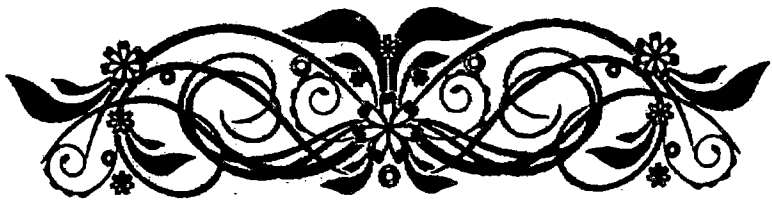

قصة

فتيان الصدق عند حاتم الطائي

دراسة بلاغية

إعداد الدكتور

د/ أحمد إبراهيم محمد

مدرس البلاغة والنقد

كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

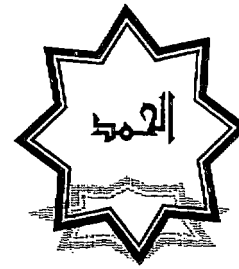

لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق ، وسيد المرسلين ، محمد بن عبدالله ، وعلى من تبعه بإحسان إلي يوم الدين .

وبعد

فإن دراسة الشعر ، وفهمه ، وتحليله ، وتجلية مواطن القوة والضعف فيه ، تعد مدخلا أساسا لفهم أسرار كلام الله رب العالمين ، وكلام رسوله الأمين .

لذلك لم يكن غريبا أن نجد عالما فذا كالشيخ عبد القاهر الجرجاني يربط بين الشعر والعقيدة ويرى أن الصاد عن دراسة الشعر صاد عن سبيل الله ، وأن من يصرف الناس عن دراسة الشعر كمن يصرفهم عن النظر في كتاب الله تعالى

فالحجة قامت بالقرآن من جهة كونه بالغا فى البراعة مبلغا تعجز عنه قوى البشر ، ولا يمكن أن نعرف هذا ونميزه ، إلا إذا عرفنا الشعر، وميزناه ، وأحكمنا فهمه ، ونقده ، وعرفنا الأمر الذي به يفضل بعضه بعضا ، فالحجة قامت بالقرآن من جهة كونه بالغا فى البراعة مبلغا تعجز عنه قوى البشر ، وبالتالي معرفة الأمر الذي يفضل به القرآن كل شعر، وكل كلام .

ولهذا يكون صرف الناس عن دراسة الشعر صرفا لهم عن معرفة وجه الحجة التي قامت بالقرآن ، كما أن دعوة الناس لتدارس الشعر حض لهم على فهم وتدبر القرآن الكريم .

وهذا البحث عندما يدرس جانبا من قصص الكرم في شعر حاتم دراسة بلاغية تحليلية ــ يهدف إلى توضيح ما فيه من معان، وتجلية ما فيه من أسرار وإبراز بعض ما حواه من قيم أخلاقية نبيلة .

وقد قدم هذا البحث كمشاركة بـــ"ملتقى حاتم الطائي" الذي أقامه النادي ، بالاشتراك مع جامعة حائل بالمملكة العربية السعودية ، وكانت جلسات الملتقى تعقد بديار حاتم وتسمى الآن (تُوَارِن) ، وذلك وسط حفاوة بالغة من أهلها ، بلغت إلى حد إصرار أهل تلك الديار على أن يدخل المشاركون في الملتقى بيوتهم بيتا بيتا ، وأذكر أنه لما اعتُذِر لأحدهم بسبب ضيق الوقت عمد إلى طعام كثير ، وحمله إلى خارج القرية ، قاطعا الطريق أمام الحافلات التي كانت تقلنا ، وما كان من الركب أمام إصرار الرجل إلا النزول لتناول طعامه ،ثم إنه توجه إلى الحاضرين بصوت مرتفع قائلا : أتدرون من الذي دفع ثمن هذا الطعام ؟ إنه حاتم ، دفعه قبل موته .

وقد وقع اختياري على قصيدته التي مطلعها :" صَحَا القَلْبُ منْ سلْمَى وعن أُمِّ عامرِ " ، لتكون قصة فتيان الصدق فيها أنموذجا ، ونواةً لتحليل ، وشرح،ودراسة ديوان الشاعر كاملا في

ضوء نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني ــ بعون الله تعالى ومشيئته ــ دراسة توضح ما يلي:

أولا : المبادئُ ، والقيم ، والأخلاقيات الرفيعةُ التي كان يتحلى بها حاتم.

ثانيا : قدرة الشاعر وإجادتُه فيما استخدمه من ألفاظ ، وعبارات ، ومقاصدَ بيانيةٍ كشفت عن الغرض ، وحققت المطلوب منها في خدمة الفكرة ، وإبراز المعنى .

ثالثا : براعة الشاعر في نظم الكلمات، ورصفها ، وتدويرها على أحوال مختلفة من تقديم ، وتأخير ، وحذف ، وذكر ، وإظهار، وإضمار، وتوكيد ، وإرسال في دقة متناهية خدمت الفكرة ، وأبرزت مقصود الشاعر ، ومراده .

وهو اتجاه تحليليٌّ تكامليٌّ ، ينظر إلى العمل الأدبي على أنه لوحة فنية تتكامل فيها الأشكال ، والألوان لتكوّن لوحة فنية لا يمكن وضع جزء منها مكان آخر ، ولا لون بدل آخر على الإطلاق.

فهو ينظر إلى الكلمة ، وصلتها وطريقة ربطِها بما قبلها ، وبما بعدها، وكذلك الجملة ،وما اكتست به الكلمات والجمل من أحوال تعاونت على إبراز الفكرة ، وتوضيح المعنى .

وهذا الاتجاه ــ الذي يعد غير مسبوق في شعر حاتم ، يعد اتجاها إلى المنابع التي صدر عنها العلماء الأوائل الذين لم يكن بين أيديهم كتب في البلاغة ، ولا في النحو ، لم يكن بين أيديهم إلا الشعر ، عكفوا عليه ، واستخرجوا منه أصول البلاغة ، وأصول اللغة .

وقد جاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد وعرض للقصة محللة، وخاتمة

أولا : المقدمة : تناولت فيها أهمية موضوع البحث ، وما دفعني إلى الكتابة فيه .

ثانيا : التمهيد : ذكرت فيه جانبا من سيرة حاتم الطائي ، وإطلالة على شعره ، والنص موضوع الدراسة ، ومناسبته .

ثالثا: تحليل النص موضوع الدراسة ، وعنونت له بـــ : " قصة فتيان الصدق عند حاتم .

رابعا الخاتمة : عرضت فيها لأهم نتائج البحث .

أولا : التمهيد

أ ـ سيرة حاتم

اتفقت الروايات الأدبية على أن حاتم هو :

حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج من قبيلة طيئ ، وكنيته : أبو سفَّانة ، وأبو عدي، كُنِّيَ بابنته سفَّانة ، وهي لأكبر ولده ، وبابنه عدي بن حاتم .

اشتهر حاتم بين العرب بالكرم ، كما كان شاعرا ، وفارسا مقداما ، وقد نقل أبو الفرج الأصفهاني عن ابن الأعرابي وصف حاتم بقوله :

" كان حاتم من شعراء العرب وكان جوادا يشبه شعره جوده ويصدق قوله فعله وكان حيثما نزل عرف منزله وكان مظفرا إذا قاتل غلب وإذا غنم أنهب وإذا سئل وهب وإذا ضرب بالقداح فاز وإذا سابق سبق وإذا أسر أطلق وكان يقسم بالله ألا يقتل واحد أمه

وكان إذا أهلَّ الشهر الأصم الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية ينحر في كل يوم عشرا من الإبل فأطعم الناس واجتمعوا إليه فكان ممن يأتيه من الشعراء الحطيئة "[1]

كان من أهل نجد ، وينتمي إلى قبيلة طيئ ، التي تسكن بلاد الجبلين (أجا وسلمى) وتسمى الآن منطقة (حائل) شمال المملكة العربية السعودية .

وطيئ من القبائل التي دخلت الإسلام دون حرب ، ولم يعرف أنها ارتدت عنه ' واشتهر من شعرائها الطائيان :أبو تمام والبحتري .

وصفه ابن كثير في البداية والنهاية بقوله :"كان جوادا ممدحا في الجاهلية وكذلك كان ابنه

في الإسلام وكانت لحاتم مآثر وأمور عجيبة وأخبار مستغربة في كرمه "[2]

وتذكر كتب الأدب أنه أحد الأجواد الذين يضرب بهم المثل بل هو أشهرهم ، وهم ثلاثة : حاتم بن عبد الله ، وكعب بن مامة

---

[1] ــ الأغاني – (١٧ / ٣٦٦)

[2] ــ البداية والنهاية لابن كثير ، جـ : ٢ ، ص : ٢١٢ ، ط : مكتبة المعارف ، بيروت .

الإيادي ، وهرم بن سنان ، وأنه لا يعرف ميت قرى أضيافه سواه.

"وذلك : أن ركبا من العرب نزلوا بموضع قبره وقد نفد زادهم ، وفيهم رجل يكنى أبا خيبريّ ، فجعل يقول : أبا سفّانة ألا تقري أضيافك ، أبا سفّانة إنّ أضيافك جياع مقوون ، يعيدها ليلته ، فلما نام ثار من نومه وهو يقول : واراحلتاه عقرت والله ناقتي فقال له أصحابه وكيف ؟ قال : رأيت أبا سفّانة قد انشقّ عنه قبره فاستوى قائماً ينشدني :

أيا الخيبريٌّ وأنْتَ امرؤٌ ... حسودُ العشيرةِ شَتَّامُها

فماذا أردْتَ إلى رِمَّةٍ .. . بداوِيَّةٍ صَخِبٍ هَامُها

تُبَغِّي أذاها وإعسَارَهـا ... وحولَك مَوْتٌ وأنعامُها

وإنَّا لنُطعم أضْيَـافَنَـا ... مِنَ الكُومِ بالسَّيْف نَعْتَامُها

ثم عمد إلى سيفه وانتضاه من غمده ، فعقر به ناقتي وقال دونكم : فما أيقظني إلاّ رغاؤها وإذا بالناقة ترغو ما تنبعث ولا بها حراك ، فقالوا : قد والله قراك حاتم ، فنحروها وأكلوا وتزوّدوا ، واقتسم القول متاع أبي خيبري على إبلهم واستمرّوا لوجهتهم ، فلما صاروا في الظهيرة ، وضح لهم راكب يجنب بعيراً يؤمّ سمتهم حتى التقوا ، فقال لهم : أفيكم أبو خيبري ، قالوا : نعم ، قال : فإنّ عديّ بن حاتم رأى أباه البارحة وهو يقول

له : إن أبا خيبري وأصحابه استقروني فقريتهم ناقته ، فعوّضه منها وزده بكراً يحمل عليه متاعه ، وهذه الناقة وهذا البكر فارتحل أبو خيبريّ الناقة ، وتخفّف هو وأصحابه من أزوادهم وأمتعتهم على البكر ، ومضوا بأتمّ قرى . وأدرك عديّ بن حاتم النبيّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحسن إسلامه ، وروي عنه وكان يحدّث بهذا الخبر بعد إسلامه . وقد روى أنّ هذه الأبيات إنما كان ينشدها حاتم ابنه عديّاً حين أمره أن يعوّض أبا خيبريّ بناقته وأمره أن ينشده إياها "[1].

وقد زاع ذكر حاتم بين العرب قاطبة حتى بعد الإسلام ، بدليل ما تناقلته الكتب عن عفو الرسول صلى الله عليه وسلم عن ابنته سَفَّانة لما وقعت في الأسر ، حيث رُوي عن محمد

ابنِ إِسْحَاقَ قوله : أَصَابَتْ خَيْلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَفَّانَةَ ابْنَةَ حَاتِمٍ، فَقُدِمَ بِهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَبَايَا طَيِّئٍ، فَجُعِلَتِ ابْنَةُ حَاتِمٍ فِي حَظِيرَةٍ بِبَابِ الْمَسْجِدِ، فَمَرَّ

---

[1] ــ الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ت : أحمد محمد شاكر ، ج : ١ ، ص : ٢٥٥ . الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج : ١٧ ، ص : ٣٧٥ . اللآلي في شرح أمالي القالي لعبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري ، ت : عبد العزيز الميمني ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧مج : ١ ، ص :٦٠٦ وما بعدها .

بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَتْ إِلَيْهِ، وَكَانَتِ امْرَأَةً جَلْدَةً ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَ الْوَالِدُ، وَغَابَ الْوَافِدُ، فَامْنُنْ عَلَيَّ مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ، قَالَ: " مَنْ وَافِدُكِ ؟ " قَالَتْ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، قَالَ: " الْفَارُّ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ " ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَرَكَنِي حَتَّى مَرَّ بِي ثَلَاثًا أُعَاوِدُهُ كُلَّ يَوْمٍ وَقَدْ سُبِيتُ ، فَأَشَارَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ خَلْفِهِ أَنْ قُومِي وَكَلِّمِيهِ، فَقُمْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَ الْوَالِدُ، وَغَابَ الْوَافِدُ، فَامْنُنْ عَلَيَّ مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ، قَالَ: " قَدْ فَعَلْتُ فَلَا تَعْجَلِي بِالْخُرُوجِ حَتَّى تَجِدِي ثِقَةً يُبَلِّغُكِ إِلَى بِلَادِكِ، ثُمَّ آذِنِينِي " فَأَقَمْتُ حَتَّى قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ بَلِيٍّ أَوْ قُضَاعَةَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِي لِي فِيهِمْ ثِقَةٌ وَبَلَاغٌ، فَكَسَانِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَمَلَنِي، وَأَعْطَانِي نَفَقَةً، فَخَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ عَلَى أَخِي عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ عَدِيٌّ: فَقُلْتُ لَهَا، وَكَانَتِ امْرَأَةً حَازِمَةً: مَاذَا تَرَيْنَ فِي أَمْرِ هَذَا الرَّجُلِ ؟ قَالَتْ: أَرَى وَاللهِ أَنْ تَلْحَقَ بِهِ سَرِيعًا "[1]

و يذكر أبو بكر الأصفهاني في روايته أنها قالت : " يا محمد هلك الوالد وغاب الوافد فإن رأيت أن تخلي عني فلا تشمت بي أحياء العرب فإني بنت سيد قومي كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ويقري الضيف ويشبع الجائع ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم

---

[1] ــ سيرة ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٥٧٩ ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج : ٧ ، ص : ١٤٣ ط : دار الشعب .

طيىء، فقال لها رسول الله يا جارية هذه صفة المؤمن لو كان أبوك إسلاميا لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق "[1]

ب ـ إطلالة على شعر حاتم

القارئ لشعر حاتم الطائي يجد أنه يدور في معظمه حول الحديث عن الكرم ، والعطاء ، والحفاظ على الجار ،واقتحام الصعاب ، والنهوض إلى المطامح الكبرى ، كما أن حاتم قد صور فيه مواقف حياتية عاشها، وتفاعل معها ، فرسم في شعره ملامح شخصيته ، وجسد كثيرا من صفاته ، خاصة الكرم ، وحسن معاملة الضيف .

ومن شعره في ذلك مخاطبا غلامه :

أوقد فإن الليل ليلٌ قر والريح يا غلام ريح صَر

عسى يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفا فأنت حر(٢)

---

[1] ــ الأغاني ج : ١٧ ، ص : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

[2] ــ عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ، جـ : ٢ ، ص : ٣٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط :١ ، ١٩٨٦ م . والأبيات في

ويقول عن المال :

إذا كان بعض المال ربا لأهله فإني بحمد الله ، مالي مُعَبَّدُ

يفك به العاني ، ويُؤْكَلُ طيِّبا ويُعْطى إذا من البخيل المُطَرَّدُ

إذا ما البخيل الخَبُّ أخمد نارَه أقول لمن يَصْلى بناريَ أوقدوا [١]

فالمال في نظر حاتم ينبغي أن يكون عبدا يتصرف فيه صاحبه بالعطاء ، والإنفاق كيف يشاء .

ومما برز في شعر حاتم مع كرمه ، حرصه على صون مروءة الضيف ، فلا يؤخر تقديم الطعام للضيف حتى يسأله ، وإنما يبادر بتقديمه قبل سؤال الضيف ، كما أنه يجد أن امتلاء بطنه بالطعام وجارات بيته طاويات ،أمر يخزى منه . يقول في ذلك :

وإني لأقري الضَّيفَ ، قبل سؤاله واطعن قِدْمًا ، والأسنَّة تَرْعُفُ

ديوانه ، ص : ٦٨ ت : د . درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، بيروت .

[١] ـ ديوانه ، ص : ٢٩ .

وإني لأعْزَى أن تُرَى بيَ بِطْنةٌ وجاراتُ بيتي طاويات،وتعُفُّ [١]

ومن المواقف التي تدل على تأصل صفة الكرم فيه ، أنه في الليلة المجدبة ، الباردة ، التي هرت كلاب الناس فيها من الجوع، كان يعمد إلى الناقة السمينة، فيذبحها ، انطلاقا من أن الكريم لا ينبغي أن يضيِّقَ على ضيفه ، وعياله ما دام يملك المال .

يقول في هذا المعنى :

ولمَّا رأيتُ النَّاس هرَّت كلابُهم ضربتُ بسيْفي ساق أقْعى فخرَّتِ

نقلت لأصْباهِ صِغارٍ ، ونِسْوَةٍ بِتَعْساء ، من ليلِ الثلاثين قَرَّتِ

عليكم من الشَّطَّيْنِ كلَّ وَرِيَّةٍ إذا النَّارُ مَسَّتْ جانِبَيْها ازْمَعلَّتِ

ولا يُنْزِلِ المرْءُ الكريم عيالَهُ وأضْيافَهُ ، ما ساقَ مالاً ، بِضَرَّتِ [٢]

---

[١] ــ ديوانه ، ص : ٩١ .

[٢] ــ ديوانه ، ص : ٢٠ .

وهو ينطلق في كرمه هذا من اعتقاده في أن المرء إذا أُعْطِيَ الغنى فعليه أن يكون جوادا ، وإلا فما فائدة المال وأنت ستتركه ميراثا بعد الموت .

يقول في ذلك :

إذا أنت أعطيتَ الغِنى ، ثم لم تجُدْ بفضْلِ الغِنَى ، لاقيتَ ما لَكَ حامدُ

وماذا يُعَدِّي المالُ منه وجمْعُهُ إذا كان ميراثاً ، و وارثَهُ لاحِدُ [1]

كما أنه لا يقبل اللوم من زوجه على كثرة إنفاقه ، لأنه يرى أن المال ينبغي أن يكون جُنَّةً للعرض ، يقيه ويصونه ، وأن الجواد لا يموت فقرا ، كما أن البخل لا يُخلِّد البخيل ، وأنه ما ساد قومه إلا بالإنفاق ، لذا فهو يكفيه من ماله "دِلاصاً" أي درعا ملساء ، و "سابحا" أي جوادا ، و "أسْمرَ خَطِيًّا " أي : رمحا ، و " عضْبًا مُهنَّداً " أي : سيفا مصنوعا في بلاد الهند .

و يخاطب زوجه في ذلك المعنى في قصيدة مطلعها :

وعاذِلَةٍ هبَّت بليلٍ تلُومُنِي ، وقدْ غاب عَيُّوقُ الثُّرَيَّا ، فعرَّدا

---

[1] ـــ ديوانه ، ص : ٣٣ .

قائلا :

ذريني يكن مالي لعِرْضيَ جُنَّةً ... يقِي المالُ عِرْضِي ، قبل أن يتبدَّدا

أريني جَواداً ماتَ هزْلاً ، لعلَّني ... أرَى ما ترينَ ،أوْ بخيلا مُخَلَّدا

وإنَّا نكُفِّي بعْضَ لوْمِكِ ، واجعَلِي ... إلى رأيِ من تَلْحِينَ ، رأيَكِ مُسْنَدا

ألمْ تعلَمِي أنِّي ، إذا الضَّيفُ نابَنِي ... عزَّ القِرَى ، أقْرِي السَّدِيفَ المُرَهَّدا

لسوَّدَ ساداتِ العشِيرة ، صارِدا ... ومِنْ دونِ قوْمِي ، في الشَّدائِدِ ، مِذْوَدا

ولَقَّى لأغراضِ العشيرةِ ، حافِظا ... وحمَّلهم ، حتَّى أكون المُسَوَّدا

يقولون لِي ، أهْلَكْتَ مالَكَ ، فانْتَصِدْ ... وما كنتُ ، لولا ما تقولون ، سَيِّدا

كُلُوا الآنَ من رِزْقِ الإلهِ ، وأيْسِروا ... فإنَّ على الرَّحْمانِ ، رِزْقَكُمُ غدا

سأذْخَرُ من مالي دِلاصاً ، وسابِحاً ... وأسْمَرَ خطِّيا ، وعَضْباً مُهَنَّدا

وذلك يكفيني من المالِ كلِّه مَسُوداً إذا ما كان مثلي مُتَلِّدا [11]

ومن هذه الإطلالة يتبين للقارئ أن شعر حاتم يدور في الأغلب حول تأصيل ، وتأكيد ، وتجسيد خلق الكرم فيه ، والتأكيد على حقوق الضيف، والجار ، وأن شعره قد خلا تماما من الهجاء، و المدح ، ةالرثاء ، و الغزل على نحو ما ساد في الشعر الجاهلي .

هذا فضلا عن قدرة الشاعر في التصوير ، والتعبير ، واختيار المفردات على نحو يتلاءم والمعنى الذي يتحدث فيه ، وهذا وغيره من الأدوات التي برع الشاعر في استخدامها يتجلى في تحليل القصيدة موضوع الدراسة .

ج ـ النص موضوع الدراسة :

صَحَا القلبُ من سَلْمَى ، وعن أمِّ عامرٍ وكنتُ أراني عنهما غيرُ صابرِ

ووشَتْ وُشَاةٌ بيننَا ، وتَقَاذَفَتْ نَوَى غُرْبَةٍ من بَعدِ طُولِ التَّجَاوُرِ

وَفِتيانِ صِدْقٍ ضمَّهم دلجُ السُّرَى على مُدْهَمَاتٍ كالقداحِ ضوَامِرِ

فلما أتوني ،قُلتُ:خيرُ مُعَرَّسٍ ولم أطَّرِحْ حاجَاتِهمْ بِمَعَاذِرِ

---

[11] ـ ديوانه ، ص : ٣٨ ، ٣٩ .

وَثَمْـــتُ بِمَوْشِيِّ المُتُونِ كَأَنَّـــهُ ... شِهَابُ قَضاً ، في كَفِّ سَاعٍ مُبَادِرِ

لِيَتْقَى بِهِ مَرْثُوبُ كَوْمَـــاءَ جِبلَةٍ ... عَقِيلَةِ أدْمٍ ، كَالْهِضَابِ ، بَهَـازِرِ

نَظَلَّ عُفَاتِي مُكْرَمِينَ ،وَطَابِـــخِي ... فَرِيقَانِ مِنْهُم : بَيْنَ شَاوٍ ، وَقَـادِرِ

شَـآمِيَةٌ ، لَـمْ يُتَّخَذْ لَـهُ حَاسِـرٍ ... الطَّبِيخِ ، ولَا ذَمُّ الْخَلِيطِ الْمُجَاوِرِ

يُقَمِّصُ دَهْـــدَاقَ البَضِيعِ كَأَنَّـــهُ ... رُؤُوسُ القَطَا الكُدرِ الدِقَاقِ

كَأَنَّ ضُلُوعَ الجَنبِ في فَوَرَانِـــهَا ... إذا اسْتَحْمَتَت أيـدي نِساءٍ حَوَاسِرِ

إذا اسْتُنزِلَت كانَت هَدايا وَطُعمَةً ... وَلَم تُختَزَن دونَ العُيونِ

كَأَنَّ رِياحَ اللَحمِ حينَ تَفَطمَتَت ... رِيـاحُ عَبيرٍ بَينَ أيـدي

د ـ مناسبة القصيدة

لم أعثر في كتب الأدب ، أو في تحقيق ديوان حاتم على مناسبة هذه النص ، ويبدوا أنه نظمه في معرض سرده لبعض المواقف الحياتية التي عاشها ، وعالجها ، وتفاعل معها ، والتي تظهر أصالة خلق الكرم فيه .

---

[1] ـ ديوانه ص : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

ثالثا : قصة فتيان الصدق

يقول حاتم مفتتحا قصيدته ــ على عادة الشعراء في عصره بالغزل:

صَحَا القلبُ من سَلْمَى ، وعن أمِّ عامرٍ وكنتُ أراني عنهما غيرُ صابر

ووشَتْ وُشَاةٌ بيننا ، وتَقَاذَفَتْ نَوَى غُرْبَةٍ من بَعدِ طُولِ التَّجَاوُرِ

"صحا"،الصَّحْو : ذهاب الغيم ، وسماء صحو : انقشع عنها الغيم، والصَّحْوُ :ذَهَابُ السُّكْرِ ، وتركُ الصِّبَا (١)

"وشاة"، الواشي : النمام ، وسمي كذلك لأنه يشي كلامه بالزور، ويزخرفه[٢].

"تقاذفت"، التقاذف : التَّرَامِي ، وبلدَةٌ قَذوفٌ،أي :طَرُوحٌ ، لبعدها ، ومنزلٌ قَذْفٌ:بعيد[٣]

"نوى غربة":النوى : المكان ، والنوى : الدار ، والنوى : التحول من مكان إلى مكان آخر، وغربة النوى : بعدها ، نوىً غُربة : أماكن بعيدة [١]

---

١ ــ لسان العرب ، مادة : صحو .

٢ ــ ــ لسان العرب ، مادة : وشي .

٣ ــ تاج العروس ، مادة : قذف .

الشاعر ـ هنا ـ يوافق شعراء عصره في افتتاح قصيدته بالغزل ، إلا أنه يخالفهم من جهة أخرى ، فهم كانوا يصفون الحبيبة وصفا ماديا أو معنويا ويتغنون بجمالها ، إلى غير ذلك من الحديث عن الصد والهجر ، أما حاتم فقد أعلن في بداية القصيدة عن إفاقة قلبه من حب سلمى ، وتجاوز أحزانه على فراق أم عامر ، وأنه لم يعد هناك ما يشغله عن أهدافه السامية ، ومقاصده النبيلة ، وأعماله العظيمة التي تتناسب مع مكانته كسيد بين قومه ، بعدما كان يظن ـ بسبب شدة حبه لهما ـ انه لا يقوى ، ولا يصبر على تحمل بعدهما . وقد حدث ذلك بعد طول التجاور بسبب ما تناقلته الوشاة ، وابتعاد أماكن إقامتهما .

وفي قوله : " صحا القلب استعارة تصريحية تبعية ، وهي : ماكان اللفظ المستعار فيها فعلا، أو ما اشتق منه ، كاسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة [٢] ، حيث شبه الإمساك عما كان يرتكب أوان الصبا ، وقمع النفس عن التلبس بذلك ، والإعراض الكلي عن سلوك سبيل الغيّ ، وركوب مراكب الجهل ، بالصحو الذي هو خلاف السكر ،بجامع حضور الذهن والاحتكام للعقل ، والإقلاع عن الخطأ في كل ، ثم حذف المشبه ، وأقيم

---

[١] ـ راجع تاج العروس ، ولسان العرب ، مادتي : نوى ، غرب .

[٢] ـ راجع مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح للمغربي ، ج:٤ ، طبعة دار السرور ،بيروت .

ثالثا : قصة فتيان الصدق

يقول حاتم مفتتحا قصيدته ــ على عادة الشعراء في عصره بالغزل:

صَحَا القلبُ من سَلْمَى ، وعن أمِّ عامرٍ وكنتُ أُراني عنهما غيْرُ صابر

ووشَتْ وُشَاةٌ بيننا ، وتَقَاذَفَتْ نَوَى غُرْبَةٍ من بَعدِ طُولِ التَّجَاوُرِ

"صحا"،الصَّحْو : ذهاب الغيم ، وسماء صحو : انقشع عنها الغيم، والصَّحْوُ :ذَهَابُ السُّكْرِ ، وتركُ الصِّبَا (١)

"وشاة"، الواشي : النمام ، وسمي كذلك لأنه يشي كلامه بالزور، ويزخرفه[٢].

"تقاذفت"، التقاذف : التَّرَامِي ، وبلدَةٌ قَذوفٌ،أي :طَرُوحٌ ، لبعدها ، ومنزلٌ قَذْفٌ:بعيد[٣]

"نوى غربة":النوى : المكان ، والنوى : الدار ، والنوى : التحول من مكان إلى مكان آخر، وغربة النوى : بعدها ، نوىً غُربة : أماكن بعيدة [١]

---

١ ــ لسان العرب ، مادة : صحو .

٢ ــ ــ لسان العرب ، مادة : وشي .

٣ ــ تاج العروس ، مادة : قذف .

الشاعر ــ هنا ــ يوافق شعراء عصره في افتتاح قصيدته بالغزل ، إلا أنه يخالفهم من جهة أخرى ، فهم كانوا يصفون الحبيبة وصفا ماديا أو معنويا ويتغنون بجمالها ، إلى غير ذلك من الحديث عن الصد والهجر ، أما حاتم فقد أعلن في بداية القصيدة عن إفاقة قلبه من حب سلمى ، وتجاوز أحزانه على فراق أم عامر ، وأنه لم يعد هناك ما يشغله عن أهدافه السامية ، ومقاصده النبيلة ، وأعماله العظيمة التي تتناسب مع مكانته كسيد بين قومه ، بعدما كان يظن ــ بسبب شدة حبه لهما ــ انه لا يقوى ، ولا يصبر على تحمل بعدهما . وقد حدث ذلك بعد طول التجاور بسبب ما تناقلته الوشاة ، وابتعاد أماكن إقامتهما .

وفي قوله : " صحا القلب استعارة تصريحية تبعية ، وهي : ماكان اللفظ المستعار فيها فعلا، أو ما اشتق منه ، كاسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة [٢] ، حيث شبه الإمساك عما كان يرتكب أوان الصبا ، وقمع النفس عن التلبس بذلك ، والإعراض الكلي عن سلوك سبيل الغيّ ، وركوب مراكب الجهل ، بالصحو الذي هو خلاف السكر ،بجامع حضور الذهن والاحتكام للعقل ، والإقلاع عن الخطأ في كل ، ثم حذف المشبه ، وأقيم

---

[١] ــ راجع تاج العروس ، ولسان العرب ، مادتي : نوى ، غرب .

[٢] ــ راجع مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح للمغربي ، ج:٤ ، طبعة دار السرور ،بيروت .

المشبه مقامه ، واشتق من الصحو صحا بمعنى أمسك عن أفعال الصبا .

وأسند الصحو إلى القلب ، وكان حقه أن يسند إليه ، فيقول : صحوت، لأنه محل الهوى ، والتعلق ،فهو مجاز مرسل علاقته المحلية.

ثم ينتقل سريعا إلى الحديث عن قصة فتيان الصدق الذين أتوه وقد انقضى من الليل معظمه ، فيقول :

فَتيانِ صِدْقٍ ضمَّهم دلجُ السُّرَى ☆ على مُهْمَاتٍ كالقداحِ ضوَامِرِ

"صدق" ، يقال : رجل صدق ، وامرأةُ صدق ، أي : نعم الرجل هو ،وامرأة صدق كذلك[١]

"ضمَّهُم".الضَّمُّ: ضمُّك الشيءَ إلى الشيءِ، وانْضمَّ على كذا:انْطَوى عليه ،واشتمل . [٢]

" دلجُ".دَلَجُ الليلِ: سيرُه كلِّه ، وادَّلجوا: ساروا من آخر الليل، والدُّلجةُ:سيرُ السَّحر. [٣]

---

١ ــ لسان العرب ، مادة ، صدق .

٢ ــ نفسه ، مادة : ضمم

٣ ــ نفسه ، مادة . دلج .

" السُّرَى": السير ليلا ، والسُّرى : سير الليل عامتِه،وقيل :سير الليل كلِّه. [١]

"القداح ".القِدْحُ:العود إذا بلغ فشُذِّب عنه الغصن ،وقطع على مقدار النَّبل الذي يُراد من الطول والقِصَرِ. [٢]

"ضوامر ".الضَّمرُ، والضُّمور:الهُزال ، ولَحَاقُ البطن . [٣]

والشاعر يتحدث في هذا البيت عن رجال هم نعم الرجال ، أتوه في وقت السحر ،وقد أضمرهم طول السفر ، على نوق ساهمة كأنها حملت على كريهة ، بسبب كثرة ما تهادتها الأسفار على قوت زهيد .

وهو يشبه ــ هنا ــ النوق في هزالها ، وضمورها ، ولحوق بطونها بالقداح ، بجامع اليبس ، والنحافة والجفاف في كل .

والتشبيه وإن كان طرفاه حسيين ،والمراد بالحسية في التشبيه إدراكه بإحدى الحواس الخمس الظاهرة ، وهي البصر ، والسمع ، والشم ، والذوق ، واللمس [٤]، إلا أنه كشف عن

---

[١] ــ نفسه ، مادة : سرى .

[٢] نفسه ، مادة قدح .

[٣] نفسه ، مادة : ضمر

[٤] ــ راجع المطول لسعد الدين التفتازاني ، ص : ٣١٢ ط: مطبعة الحاج محرم افندي البوسنوي ، ١٣٠٤ هـ

مقدار الجفاف والضمور الذي لحق بتلك النوق ، حتى ذهب شحمها وكلحت وجوهها ، وكادت عظامها تخرج من جلودها بسبب قلة لحمها .

والكلام وإن كان ظاهرا في أنه مسوق لتشبيه النوق بالقداح إلا أنه يشير إلى ما ألم براكبيها من إجهاد ، وعناء ، ومشقة ، من طريق الكناية ،لأن طول السفر الذى أسهم النوق ــ مع جمال صبرها ، وقوة تحملها ــ يكون أثره في راكبيها أوضح وأشد.فكأن سهوم النوق يستلزم ــ بلاشك ــ سهوم راكبيها ، وشحوب وجوههم ،مما بهم من العناء ، ومكابدة مشاق السفر .

ولعل هذا هو سر قوله:"ضمهم دلج السّرَى"في بداية البيت ، فكأن دلج السُّرَى لما ضمهم أضمرهم ، وأذهب أجسادهم ، ومع ذلك فهم نعم الرجال .

ولهذا يمكن حمل المعنى على أنه أراد تشبيه فتيان الصدق بالقداح في النحافة ، واليبس،والضمور . ويكون ترتيب البيت :وفتيان صدق كالقداح ضمهم دلج السرى على مسهمات ضوامر.غير أن حياء حاتم يمنعه من التصريح بذلك ،إذ قد يفسر إكرامه لهم على أنه من باب الإشفاق عليهم لكونهم كالقداح بسبب طول مكابدة عناء السفر ، ومشاقه ، وهو غير مقصود، لأن الكرم إنما هو طبع وسجية فيه .

والواو في بداية البيت ليست عاطفة ، وإنما هي واو "رب"، والتقدير :ورب فتيان صدق ،وفيه مدح لضيفه ، لأن مجرور" رب "تلزمه الصفة ، فهم رجال موصوفون بأنهم نعم الرجال على الدوام، وأما "رب"،فقد ذكر النحاة أنها تفيد التكسير في مواطن المباهاة، والمفاخرة ،إلا أن اللائق بالمعنى والسياق هنا حملها على التكسير، وإرادة التقليل تواضعا ، مما يعني أن هؤلاء الفتيان ليسوا أول من أتاه ، وإنما يأتيه فتيان صدق كُثُرٌ، وهو لا يتباهى بذلك ، بل يتواضع ، ويتفانى في خدمة ضيفه ، والقيام بمهماتهم، كأن يقول القائل :"ربَّ عالمٍ لقيت ، وهو قد لقيَ كثيرا من العلماء ، ولكنه يقلل من لقيه تواضعا "[1]

ثم تأمل قوله :"على مُسْهَمَاتٍ"، وكيف حذف منه الموصوف ، وأصله : على نوق مسهمات ، وكأن السهوم قد أصبح علما على تلك النوق بسبب ملازمته لها ، لطول ، وبعد أسفارها ، فكأنهم لا يركبون نوقا ، وإنما يركبون مسهمات .

ولو قال : على نوق مسهمات ، لفات هذا المعنى ، لأنه يوحي ببقاء بعض ما كانت النوق به نوقا من لحم، وشحم ، ولبن، ولما أشار إلى ما عاناه فتيان الصدق في أسفارهم

****

[1] ــ براجع الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي . ت : فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم ، باب : "رُبَّ" ، ص : ١٠٣

فلما أتوني ،قُلْتُ:خيرُ مُعَرَّسٍ ☆ ولـــم أطَّرِحْ حاجَاتِهِمْ بِمَعَـاذِرِ

" مُعَرَّسٍ".المُعَرَّس:موضع التعريس ،والمُعَرِّس :الذي يسير نهاره ، ويعرِّس ليله ، وعرَّس المسافرُ:نزل في أول السَّحَر ، والتَّعْريسُ : نزول القوم في آخر الليل للاستراحة .[1]

والمعنى . أن فتيان الصدق لما نزلوا عليه ، قال مرحبا بهم : خيرُ مُعَرَّسٍ ، أي : أفضل مكان تستريحون فيه ، قاضيا لهم حوائجهم ، مزيلا عنهم ، وعن نوقهم مظاهر عناء السفر

وتأمل في اختيار الشاعر للكلمات ، وطريقة نظمها ، وكيف جاء ذلك معبرا أدق تعبير عن مراده ، ومكنون صدره .

فقوله : "أتوني"يشير إلى أن الطريق إلى مُعرَّس حاتم ممهدة، واضحة المعالم ، لكثرة من ساروا فيها ، فهي طريق مسلوكة ، ذلك لأن الإتيان يستعمل لما هو أيسر مما يستعمل فيه المجيئ .تأمل قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام :

{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً}[2]لتقف فيه على الفروق الدقيقة في استعمال الإتيان ، والمجيء، وكان سياق الكلام لما قال : فأتت به أن يُقال : يا مريم لقد أتيت ، لكن لما كان أمر حملها ووضعها على غير ما تعارف

---

[1] ــ لسان العرب ، مادة : عرس .

[2] ــ سورة مريم ، الآية رقم : ٢٧

عليه الناس ، وما جرت به شريعتهم من الزواج ــ عظيما يشق على النفس تحمله ، استعمل المجيء، بخلا ف حمل الغلام .

وأما قوله :" خير معرس"،فقد بناه على الإيجاز بالحذف ، وتقديره : هذا خير معرس ، على تقدير حذف المسند إليه ،وتقديره : هذا خير معرس ، أو حذف المسند ، وتقديره : نزلتم خير معرس ،وففيه ــ إضافة إلى الإيجاز الذي هو فضيلة في الكلام لا تتاح إلا لمن وُهِب ملكة الفصاحة ، وموهبة البيان ــ إسراع ، وتعجيل من الشاعر إلى ذكر المطلوب لما رأى من حال فتيان الصدق ، وأنه لا يعنيه النص على إسناد الخيرية إلى مُعَرَّسِه ، ومنزل أضيافه ، أو إسناد نزول فتيان الصدق إلى خير معرس ، بقدر ما يعنيه الإخبار عن خيرية المكان فحسب ، وهو ما يهم المخاطبين ويعنيهم .

و"خير اسم تفضيل أصله:" أخْيَر"، حذفت همزته لكثرة الاستعمال . ولما كانت دلالته على اشتراك شيئين في صفة وزيادة أحدهما على الآخر ، كان فيه إشارة إلى وجود أكثر من معرَّس في محيط حاتم ، إلا أن مُعَرَّسه خَيْرُها ، وأشهرها جميعا .

وخيرية المُعرس ــ هنا ليست لذات المكان ، وإنما لوجود حاتم فيه ، فهو استعمال من قبيل الكناية عن خيرية حاتم ،وأفضليته في كفاية المُدلجين في السُّري مهماتهم ، فوجوده في مكانٍ يستلزم خيريته ،لأن مَقام المرء ، ومُقامه من لوازم ذاته ،

وفيهما مظاهر أحواله ، ولذلك يقول في الشطر الثاني نافيا عن نفسه ، وليس عن المكان:"ولم أطَّرِحْ حاجاتهم بمعاذر" .

وهي صياغة تنبئ عن معنى لطيف ،هو:عدم تصوره وجود أحد يمكن أن يعتذر ، ويتنصل من تلبية ، وقضاء حاجات المدلجين في السُّرى على الإطلاق ،فضلا عن عدم تعرضه ، أو تعريضه بغيره ، آطَّرح حاجات المسافرين أم لا ؟.

ذلك" لأنك إذا قلت : ما فعلتُ ، كنت قد نفيت عنك فعلا لم يثبت أنه مفعول ، وإذا قلت : ما أنا فعلت ، كنت نفيت عنك فعلا ثبت أنه مفعول ... تفسير ذلك : أنك إذا قلت : ما ضربت زيدا ، كنت نفيت عنك ضربه ، ولم يجب أن يكون قد ضرب، بل يجوز أن يكونَ قد ضرَبه غيرُك وأن لا يكونَ قد ضُرِبَ أصلاً . وإذا قلتَ : ما أنا ضربتُ زيداً : لم تقتله إلاّ وزيدٌ مضروبٌ وكان القصدُ أن تنفيَ أنْ تكونَ أنتَ الضَّاربَ . [1]

****

وَقَفْتُ بِمَوْتِيٍّ المُتُونِ كَأَنَّـــهُ ☆ سَحَابُ قَطاً ، فِي كَفِّ سَاعٍ مُبَادِرِ

لِيَتْكَى بِهِ مَرْثُوبُ كَوْمَاءَ جِبْكَةٍ ☆ عَلِيلَةِ أدْمٍ ، كَالْحِضَابِ ، بَحَـــازِرِ

---

[1] ــ راجع دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، مبحث التقديم في النفي ، ص : ١٢٤ ، ت : محمود شاكر ، ط : دار المدني ، القاهرة .

" بِمَوْشِيٍّ" ،الوشْيُ في اللون :خلط لون بآخر ،والموشي : ما كان فيه أكثر من لون . [1]

" المُتُونِ"، متَّن الشيءَ:صلَّبه ، والمتن من كل شيء : ما صلُب ظهره ، وجلْد له متن : أي صلابة . [2]

" شِهَابُ"،الشهاب هو الذي ينقض بالليل ،والأصل فيه : الشعلة من النار ، والشَّهْبُ ، والشُّهْبة :لون بياض يصدعه سواد في خلاله. [3]

"غضاً" : هو شجر الغضى ، واحدته : غضاة ، من أشجار الرمال ، لا يكاد ينبت إلا حيث توجد الرمال ، وهو شجر قوي يتحمل الظروف المناخية الشاقة ، يقاوم الجفاف ، والملوحة ، ويصمد أمام العواصف والأعاصير ، وهو شجر معمر ، خاصة في شمال المملكة العربية السعودية ، ويرتفع إلى أربعة أمتار.

"ساع"،السَّغي : عدو دون الشد ، وسعا : عدا .[4]

"مبادر"، بدَرْتُ إلى الشيء: أسرعت ، وكذلك : بادرت ، وبدر إلي : عجَّل [1]

---

[1] ــ لسان العرب ، مادة : وشي .

[2] ــ لسان العرب ، مادة : متن .

[3] ــ لسان العرب ، مادة : شهب .

[4] ــ لسان العرب ، مادة : سعا .

" لِيَشْقَى"،شاقيْتُ الأمر : عانيته ، وصابرته .[٢]

"عُرْقوبُ"،العرقوب:العصب الغليظ المُوَتَّرُ فوق عقِب الإنسان ، وعُرقُوب الدابة في رجلها ، بمنزلة الركبة في يدها .[٣]

"كَوْماء"،ناقة كَوْماء: عَظيمة السَّنام طويلته ، والكَوَمُ عِظَم في السَّنَام .[٤]

"جبْلَةً"، الجَبْلَةُ : الصلبة ، الغليظة [٥]. "عقيلة ": متميزة ،كريمة [٦]." أدُمٍ"، الأُدْمُ:الأسوة ، والقدوة .[٧]

"بهازر" ، البهازر : واحدتها بُهْزُرة ، وهي الناقة العظيمة ، الجسيمة .[٨]

---

[١] ــ لسان العرب ، مادة : بذر .

[٢] ــ لسان العرب ، مادة : شقي .

[٣] ــ لسان العرب ، مادة :عرقب .

[٤] ــ لسان العرب ، مادة : كوم .

[٥] ــ لسان العرب ، مادة :جبل .

[٦] ــ لسان العرب ، مادة :عقل .

[٧] ــ لسان العرب ، مادة :أدم .

[٨] ــ لسان العرب ، مادة : بهزر .

والشاعر يتحدث في هذين البيتين عن قيامه بسيفه الصلب الحاد مسرعا إلى ناقة فتية سمينة ليذبحها لضيفه الذين نزلوا بساحته .

وقد جاء الكلام هنا موصولا بما قبله بالواو ،لكونهما خبرين، فقال : " وقمت .... " ولما كانت الواو لمطلق الجمع ، كان في العطف بها إشارة إلى أن قيامه لذبح الناقة ،تزامن مع قوله مرحبا بضيفه :"خير معرس" وهو من إكرام الضيف ، لما فيه من التعجيل بإعداد القِرى ، وعدم انتظار طلب الضيف له .

وأما الباء في قوله :"بموشيٍ "فتفيد الإلصاق والاختلاط ،وهذا يعني أن الرجل مستعد ، ومتهيئ على الدوام للذبح ، فسيفه لا يفارقه ، ولو قال : وقمت إلى موشي المتون ، لما أفاد ذلك .

وموشي المتون : كناية عن السيف الصلب ،القوي ،الحاد الذي صفا معدنه ،ووُشِيَ متنه ، فاختلط فيه اللون الأصفر بالأبيض ، وقد كشف تشبيه السيف بشهاب الغضا عن ذلك ، إلى جانب مضائه ، وسرعته في الذبح .

واختيار الشاعر لشهاب الغضا دون غيره من الأشجار ، لقوة ناره ، وقلة دخانه مما جعل من حطبه أفضل حطب أوقدت به نار، فألسنة نار حطب أشجار الغضا صافية قوية ،يختلط فيها اللون الأبيض بالأصفر ، فالوجه بينهما في اللون والحدة .

وصياغة الشاعر تنبئ عن شدة الشبه بين السيف وشهاب الغضا إلى حد يصعب معه على الناظر التفريق بينهما ، وذلك مأخوذ من استخدامه لأداة التشبيه :"كأن"، وهي لا تستخدم إلا حيث يقوى الشبه بين الطرفين .[1]

ثم إنه يقيد المشبه به بكونه في يد ساع مبادر ، مما يزيد إلى مضاء السيف ، ولونه : حركةً سريعة نحو هدفه .

والبيت كله كناية عن سرعة حركته حال قيامه للذبح ، و:كأنه يقول : لقد سعيت بسيفي مبادرا إلى الذبح ، ذلك لأن حركة السيف لما لم تكن ذاتية ، وإنما كانت مستلزَمة لحركة حامله ، والقابض عليه ، كانت دليلا وبرهانا على سرعة حركة حامله .

وقد كشف عن علة القيام في سرعة ، بموشي المتون ، في قوله : "ليشقى به عرقوب كوماء ...، أي ليعاني بذلك السيف عرقوب الناقة ، وهو بعضها ، لذا كان ذلك من باب التعبير بالجزء عن الكل ، فجميع أعضاء الناقة يعاني عند الذبح ، إلا أن النص ــ هنا ــ على عرقوب الناقة فيه إشارة إلى عرْقَبَتِها قبل الذبح ، أي: ضرب عرقوبيْها أولا قبل ذبحها، وهو أسلوب نهى الإسلام عن استخدامه إلا في حالات الضرورة القصوى ، كأن يُخشى على حياة الذابح من الحيوان مثلا ، وطريقة حاتم في

---

[1] ــ راجع أدوات التشبيه ، د محمود حمدان . ص :٢٠٩ ، ط : الأولى ، مطبعة الأمانة ، القاهرة .

الذبح ربما كان سببها أنه متعجل في الذبح ، وفي إعداد الطعام لضيفه .

ثم إنه جعل الآلة " السيف " سبب شقاء العرقوب في قوله : ليشقى به ، والحقيقة أن المتسبب في الشقاء هو الذابح ، وإنما السيف آلته ، فهو من إسناد الفعل إلى آلته .بغرض نفي قصد إشقاء عرقوب الناقة عنه .بدليل أنها لا تشعر بشيء عند ذبحها، فسيفه شهاب في كف ساع مبادر .

ومن أمارات أصالة خلق الكرم فيه أنه اختار للذبح كوماء جبلة ، عقيلة ، أدم ، كالهضاب ، بهازر ، فهو يضرب ناقة عظيمة الجسد ، كثيرة اللحم ،عرفت ، وميزت بذلك ، لأن أصل التعبير :ليشقى به عرقوب ناقة كوماء ، فحذف الموصوف ، وهو: ناقة ، يشير إلى ملازمة تلك الصفات لها ، وأنها علم عليها.

ثم إنها غليظة ، مجتمعة الخلق كريمة ، نفيسة ،أدماء،صفية ،مشرفة السنام ، تأتسي بها سائر النوق ، وفوق ذلك ، هي كالهضاب في الضخامة .

كل ذلك كان أدعي لإمساكها ، والضن بها على الذبح ، فإذا ذبحها كان ذلك دليلً ، وأمارةً على أصالة خلق الكرم فيه .

****

فَظَلَّ عُدَاتِي مُطْرَمِينَ ،وَطَابِخِي ☆ فَرِيقَانِ مِنْهُم : بَيْنَ شَاوٍ ، وَنَاضِرِ

شَآمِيَةٌ ، لَـمْ يُتْفَدْ لَـهُ حَاسِـرٍ ☆ الطَّبِيخِ ، وَلَا ذَمُّ الْخَلِيطِ الْمُجَاوِرِ

"عُفَاتِي"، العُفَاة والعُفَّى : الأضْيافُ ، وطُلَّابُ المعروف .[١]

" طَابِخِي"،الطَّبْخ: إنضاج اللحم ، وغيرِه،والطَّبَّاخُ : مُعَالجُ الطَّبْخ، وفعله : طَبَخَ يطبُخ فهو طابخ .[٢]

" شاوِ "، الشَّيُّ: مصدر شَوَى ،يقال : شَوَيْتُ اللَّحْمَ شَيًّا .[٣]

"قادر"، القِدْرُ: واحدةُ القدُور ، وهيَ إنَاءٌ يوضَعُ فيه الطَّعَامُ لِيُطْبَخ ، وقَدَرَ القِدْرَ يَقْدِرُها قَدْراً ،فهُوَ قَادِرٌ ، أي : طَابِخٌ .[٤]

"شآمية "منسوبة للشام. [٥]

"حاسِر "، حَسَرَ،أي : كَشَفَ ، وكُلُّ شَيْءٍ كُشِفَ ، فقد حُسِرَ ، وحَسَرْتُ : كَشَفْتُ .[٦] "ذَمٌّ " ، الذَّمُّ : نَقِيضُ الْمَدْحِ .[٧]

"الْخَلِيطُ " : الرجلُ تختَلِطُ ماشيتُه بِمَاشِيَتِك ، ومالُه بمَالِك ، فيُرِيحَا معاً ، ويَسْقِيَا مَعاً ، ويُسَرِّحَا مَعاً .[١]

---

١ ــ لسان العرب ، مادة :عفو .

٢ ــ لسان العرب ، مادة :طبخ .

٣ ــ لسان العرب ، مادة :شوي .

٤ ــ لسان العرب ، مادة :قدر .

٥ ــ لسان العرب ، مادة : شأم .

٦ ــ لسان العرب ، مادة : حسر .

٧ ــ لسان العرب ، مادة : ذمم .

"المُجَاوِرُ" : المُشَارِكُ في حُقُوق المِلْكِ ، كالطريق ، والشِّرْب .[٢]

"ظلَّ " فعل ماضي يفيد اتصاف اسمها بالخبر في جميع النهار، مما يعني أن طلاب معروفه ،الذين أتوه وقت السحر، قد ظلوا منزهين ، معظمين لديه ، جامعا لهم في معاملته كل أنواع الخير والشرف ، والفضائل ، كما أنه لم يدخر عنهم شيئا يكرم عليه ، فهم في نظره نعم الرجال.

وتأمل طريقة نظمه لهذا المعنى لتقف على ما كان يتمتع به من تواضع ينأى به عن مواطن التباهي ، والتفاخر ، حيث جعل فاعل الكرم مجهولا ، ولم ينسبه إلى نفسه صراحة ، بأن يقول : فظللت أكرم عفاتي ، فاهتمامه منصب علي إثبات تحقق إكرامهم ، وأنه لم يكن ثمة ضن عليهم بغال ،أو نفيس ، ماديا كان أومعنويا،وليس بوقوع الكرم منه عليهم .

لقد ظل عفاته مكرمين ، في حال كان هناك فريقان من طابخيه ،فريق يعالج طبخ اللحم في قدور شآمية منصوبة على الأثافي ، لم يتخذ لها حاسرا،أي : غطاء،فتنتشر رائحتها وتفوح، حتى يشمها الخلطاء المجاورون لحاتم ،فيكون لهم فيها نصيب، أو: رجلا يكون مهتما بإخراج الطبيخ من القدور ،مما يعني أنها متاحة لكل عاف، أو خليط مجاور ، يأخذ منها ما شاء.

---

[١] ــ لسان العرب ، مادة : خلط .

[٢] ــ لسان العرب ، مادة : جور

ولذلك ينفي وجود ذم من مخالطيه ، لأن فضله واصل لهم ، غير محجوب عنهم ، مما يعني أن الرجل كان اجتماعيا يقدم مصالح الآخرين ، ومنافعهم ، وأنه لم يكن لديه حرص على اجتلاب النفع لنفسه ، وأن القوم كان أمرهم به واحد.

والأصل في الخلط : خلط الماء بالشراب ،فاستعماله في الشريك المجاور من باب الاستعارة التبعية المكنية ، التي تشير إلى اختلاط مال حاتم بمال جيرانه ، أو عشيرته مما يعني حسن مجاورته للآخرين ، فهو جار حليف ، مقاسم ، مناصر ، مُكرِم ،دمِثٌ ، حَسَنْلَيٌ ، وليس يربُوعيٌ ، ولا

ونفي وجود الذم من الخليط ، قد يكون في نظر البعض أدنى من حدوث الحمد منه ،إلا أن توافق الخلطاء لما كان من الندرة بمكان ، كان انتفاء وجود الذم من خلطاء حاتم المجاورين له أمرا يحمد به ،وينوه بشأنه لأنه يدل على تمتعه بخلق انكار الذات، وإيثار شأن الآخرين ، وهو خلق نوه به القرآن في قوله تعالى ." وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[1]،كما أشار في موضع آخر إلى أن القليل من الخلطاء لا يظلم بعضهم بعضا ، قال تعالى:" وَإِنَّ

---

[1] ــ الحشر : آية رقم : ٩ .

كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ".[١]

وأما الفريق الآخر فيقوم بشي اللحم الطريِّ ، وإعداد الشِّواء لعفاة حاتم .

****

يُقَمِّصُ دَهداقَ البَضيعِ كَأنَّـهُ ☆ رُؤوسَ القَطا الكُدرِ الدِقاقِ الحَناجِرِ
كَأنَّ مَكُوكَ الجَنبِ في فَوَرانِـها ☆ إذا اِستَحمَشَت أيـدي نِساءٍ حَواسِرِ

" يُـقَمِّصُ"،القَمَاصُ : أن يرفع يديه ، ويطرحَهما معا ، وقَمَصَ البحرُ السفينةَ : حركَها بالموج ، وتقَمَّصَ في النَّهْرِ : تقلب وانغمسَ.[٢]

"دَهْدَاقَ"، الدَّهْدقَة :قطْع اللحم ،وكسر العظم فيه .[٣]
"البَضِيع":اللَّحم ، والبضيع :ما انماز من لحم الفخِذ، الواحد : بضيعة .[٤]

"الْقَطَا"، القَطَا : القَطَوَاتِ جمعُ قَطَاةٍ، وهيَ: طائرٌ معروفٌ، سُمِّيَ بذلك لِثِقَلِ مَشْيِهِ [١]

---

[١] ــ سورة :ص ، أية رقم :٢٤ .
[٢] ــ لسان العرب ، مادة :قمص .
[٣] ــ لسان العرب ، مادة :دهدق .
[٤] ــ لسان العرب ، مادة :بضع .

"الكُدْرُ" ،الْكَدَرُ: نقيضُ الصَّفَاءِ، وكَدِرَ كَدَراً، وكُدُوراً، وكُدْرَةً، والْكُدْرَةُ من الألوان: ما نَحَا نَحْوَ السَّوَادِ والْغُبْرَةِ [٢].

"الدّقاق"،الدّقاق :فتات كل شيء،واحده : دَقَّة .[٣]

"اسْتَحْمَشَتْ "،استحمش :اشتد غضبا ،وأحمشت النارَ :ألْهبتُها.وأحْمَشْتُ القدرَ: أحميتها بدُقاق الحطب حتى غلت غليانا شديدا .[٤]

"حواسر"،حسر عن زراعيه :أخرجهما من كُمِّه ، وكل مكشوفة الرأس ، والزراعين : حاسر ، والجمع :حسَّر ، وحواسر.[٥]

الشاعر في هذين البيتين ، يأخذنا إلى معرسه ، وتحديدا في مكان إعداد القري لعفاته ،متابعا عمل طابخيه ، ومتفقدا قدوره المنصوبة على الأثافي ، فيذكر أن الطباخ يحرك اللحم داخل القدور ، وقد اشتحمشت النار تحتها ، فأخذت تغلي ، وتفور.

---

[١] ــ اللسان ،مادة: ق ط ا.

[٢] ــ اللسان، مادة : ك د ر.

[٣] ــ لسان العرب ، مادة :دقق .

[٤] ــ لسان العرب ، مادة :حمش .

[٥] ــ لسان العرب ، مادة حسر .

وإذا أردنا أن نقترب من المعنى أكثر ، فلنتأمل كلمات الشاعر التي اختارها ، وطريقته في نظمها .و أول ما يطالعنا الفعل : "يقمص "وهو يعبر أدق تعبير عن حركة الطابخ أثناء تحريكه اللحم داخل القدور ،فهو لم يقل مثلا : يقلب ، أو يدير مثلا ،لأنه أراد أن يصور حركة الطابخ بدقة عندما يستخدم كلتا يديه معا لتحريك اللحم ،وهذا يعني عظم القدر وضخامتها، وكثرة اللحم وتراكمه بداخلها .

ثم تأمل كيف اختار حاتم ما انماز من اللحم ، بخلوه من الشحم ليطبخه بالقدر ،وهو لحم الفخذ بعد تقطيعه وتكسير العظم فيه ،وهو يشبهه برؤوس القطا دقاق الحناجر في الحجم ، والشكل ،ليكشف عن طيب اللحم ، وإجادة طبخه ، وخلوه من الشحم .وهذا ليس بغريب ،لأن لحم الفخذ إذا قطع وطبخ في قدر كبيرة فإنه مع الإنضاج الجيد يصير قطعا صغيرة .

ويبدو أنهم كانوا يصنفون اللحم ، ويضعون كل صنف في قدر، فلحم الفخذ في قدر ، والأضلاع في قدر ، ويجعلون للشواء اللحم الطري الذي اختلط بالشحم ، كي تَحَمَّشَ شحومه ، وتذاب بالشواء.

ثم يشبه في البيت الثاني : ضلوع جنب الناقة حين تفور القدر فتطو مرة وتسفل أخرى ، بأكف النساء مكشوفة في الحجم واللون، ودرجة الليونة .

وهو تشبيه يعكس درجة نظافة اللحوم ،ومدى اهتمام حاتم بالإعداد الجيد لها في دقة ونظام ، يتجليان فيما يلي :

١ــ تقسيم طابخيه إلى قسمين : شاو ، وقادر .

٢ــ فرز اللحم وتصنيفه ، فلحم الفخذ ، يطبخ بقدور ، والضلوع بقدور ، وهناك لحم للشواء .

٣ــ الضلوع يتم تكسيرها في قطع متساوية .

٤ ــ الحرص على نظافة القدور ، وكذلك اللحوم أثناء سلخ الناقة وتقطيع لحومها .

٥ ــ يقوم بنفسه بمتابعة إعداد الطعام في كل مراحله ، وتفقده للقدور .

****

إذا اِستُنزِلَت كانَت هَدايا وَطُعمَةً ☆ وَلَم تُختَزَن دونَ العُيونِ النَواظِرِ

كَأَنَّ رِياحَ اللَحمِ حينَ تَقَطَّعَت ☆ رِياحُ عَبيرٍ بَينَ أيدي العَواطِرِ

" هدايا "،الهَدِيَّةُ : ما أَتْحَفْتَ به ، يقال :أَهْدَيْتُ له، والتَّهادِي: أَن يُهْدِي بعضُهم إِلى بعض، والجمع هَدايا .[١]

---

[١] ــ لسان العرب ، مادة :هدي .

"طُعمة "،الطُّعمة : المَأكَلة ،والجمع : طُعَمٌ ، ويقال :جعَلَ السلطانُ ناحيةَ كذا طُعْمةً لفلان أي ، مَأكَلَةً له .[1]

"تختزن"،خَزَنَ الشَّيءَ يَخْزُنه خَزْناً واختَزَنهك أَحْرَزه وجعله في خِزانة.[2]

" تَغَطمَطَت"،غَطْمطَ : قال ابن دريد : هو اضراب موج البحر، وغليان القدر ، وصوت السيل في الوادي .[3]

تأمل في البيت الأول لترى صنيع حاتم فيما لديه من طعام ، وكيف يكشف عن أصالة خلق الكرم فيه ،بما لا يقف عند حد إكرام ضيفه فحسب ، بل يتسع ليشمل أهل حيِّه ، غنِيِّه ، وفقيرِه ،مما يعني أنه كان رجلا منظورا ، يُرْجَى خيرُه .

فيقول :"إذا استنزلت كانت هدايا ، وطعمة "،استنزل : بوزن : استفعل ، وأكثر ما يستعمل فيه : استدعاء الفعل وطلبه ، ثم بنيَ للمفعول ، فمعناه : إذا طُلب إنزال القدور من فوق الأسافي ، وهو كناية عن نضج ما فيها من لحوم .

وجواب الشرط : كانت هدايا، وطعمة ، وهو أمر متيقن منه ،لأن أغلب ما تختص به "إذا" الأمر المتيقن منه .

---

[1] ــ لسان العرب ، مادة :طعم .

[2] ــ لسان العرب ، مادة :خزن .

[3] ــ تاج العروس من جواهر القاموس للذبيدي ، مادة :غطمط .

واسم كان محذوف ، دل عليه السياق ، وتقديره : كانت القدور هدايا ، وهو من باب التعبير بالمحل ، وإرادة الحال ، فهو مجاز مرسل علاقته المحلية ، لأنه لا يعقل أن تكون القدور عينها طعمة ، غير أن في التعبير بالمحل ــ هنا ــ إشارة إلى أنه لا يبقي ، ولا يدخر شيئا مما بداخلها لنفسه ،بل يخرجه كله هدايا للأصحاب ، والمياسير ، وطعمة للفقراء ، والمساكين.

وهو يؤكد على هذا المعنى في الشطر الثاني من البيت ، حيث يقول :" ولَم تُختَزَن دونَ العُيونِ النَواظِرِ"، وهذا من أمارات كمال النفس ، وصحة الطبع ، وأصالة الخلق .

وأما البيت الثاني فيشبه فيه رياح اللحم ، حين يشتد غليان القدور برياح العبير التي تمر بين بين نسوة معاطير، بجامع : طيب الرائحة ، وهُقُوُّ النفس ، واستطارة القلب في كل .

وفيما يلي القصة كاملة:

الخاتمة

يتضح من هذا التحليل البلاغي لقصة فتيان الصدق لدى حاتم ما يلي :

أولا : ما اتسم به شعره من عمق في الأفكار ، وغزارة في المعاني ، وتنوع في الأساليب ، والوسائل ، والأدوات البيانية المختلفة بما يكشف عن شاعرية، وموهبة كريم العرب .

ثانيا . أن شعره مرآة تعكس المبادئُ ، والقيم ، والأخلاقيات الرفيعةُ التي كان يتحلى بها .

ثالثا : إجادته فيما استخدمه من ألفاظ ، وعبارات ، ومقاصدَ بيانيةٍ كشفت عن الغرض ، وحققت المطلوب منها في خدمة الفكرة ، وإبراز المعنى .

رابعا : براعة الشاعر في نظم الكلمات، ورصفها ، وتدويرها على أحوال مختلفة من تقديم ، وتأخير ، وحذف ، وذكر ، وإظهار ، وإضمار ، وتوكيد ، وإرسال في دقة متناهية خدمت الفكرة ، وأبرزت مقصود ه ، ومراده .

فهرس

المصادر والمراجع

١	أدوات التشبيه ، د محمود حمدان .
٢	أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ط : دار الشعب .
٣	الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .
٤	البداية والنهاية لابن كثير ، ط : مكتبة المعارف ، بيروت.
٥	تاج العروس من جواهر القاموس للذبيدي .
٦	الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ، ت : فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم
٧	دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، ت : محمود شاكر ، ط : دار المدني ، القاهرة ..
٨	ديوان حاتم الطائي ، تحقيق د . درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، بيروت .

٩	سيرة ابن هشام .
١٠	الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ت : أحمد محمد شاكر.
١١	عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط :١ ، ١٩٨٦ م .
١٢	اللآلي في شرح أمالي القالي لعبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري ، ت : عبد العزيز الميمني ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤١٧هـ .
١٣	مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح للمغربي ، طبعة دار السرور ،بيروت .
١٤	المطول لسعد الدين التفتازاني ، ص : ٣١٢ ط: مطبعة الحاج محرم افندي البوسنوي ، ١٣٠٤ هـ